جـــوته

للأستاذ يوسف عبد المسيح ثروت

تابع

حاجته للغضب والعنف :

طبيعى أن أقوال جوته هذه هى عين التشاؤم ، ولكنه أساساً كان راضياً بالوضع القائم ؛ لأن روح المسالة كانت بعيدة عنه . وعلى النقيض من ذلك كان يشعر شعوراً جارفاً بالقوة والنضال « كى يتمكن الإنسان أن يتفوق على أخيه » وهذا يذكرنا بقول (فاكنر) : « عند ما تتحرك القوة بدون خوف يعجبنى الجلس الحربى كثيراً » . زد على ذلك أنه كان يعترف بذلك جهاراً وهو القائل « إنى أشعر بالتعاسة عند ما أكون متصالحاً مع الآخرين » وهناك شواهد كثيرة يمكن استنتاجها من قناعته وسروره بالعنف والعقاب واستعداده لاسكات الآخرين بالقوة الناشمة « ونبذ أضراب هؤلاء الناس من المجتمع المتمدن »

إن الشئ التعس حقا والمزعج للوطنيين الذين كانوا يسعون لتثقيف ألمانيا وتحريرها سياسيا أن يكون الشاعر فى طليعة المناهضين لهم والمقاومين لمكرتهم التحررية ، وما أن واتاه الأجل المحتوم حتى شعر الناس براحة بالغة وتنفسوا الصعداء لخلاصهم من هذا الكابوس ، وعلى الرغم من اعتقاده بأن الحرية لا يمكن أن تمنى شيئاً للأرقاء ؛ فإنه سمح لنفسه بالمزيد منها بصورة لا محدودة ولا موصوفة ولا مدركة ، حرية كاملة ، حرية كانت تتشكل بجميع الأشكال وكانت تطالب بالاطلاع على كل شئ وأن تدرك كل شئ ، وعلينا أن نتذكر أنه لم يكن كتاباً بل إنساناً مفعماً بالتناقضات ، إنساناً عظيماً ذا متناقضات هائلة وقد أحب أن يدعو نفسه « مناهضاً للمسيحية بعناد وتصميم » . ولم يترك فرصة لا يظهر فيها وبأسلوب الاوثر .. كراهية الوثنية « للصليب » كما فعل نتشه بعاطفيته الشديدة ضد الأخلاق المسيحية ، ولو أن ذلك لا يمنعنا من ملاحظة طبيعته العابية ، وكذلك الحال مع غوته الذى ناصر الوثنية ، وهذا الانتصار للوثنية لا يمكن أن يعارض حقيقة وجوده الروحى ، والتى كانت تقر بالثورة الادراكية . ولعل خير دليل على ذلك قوله « إن كل نوع من الألم فيه عنصر إلهى » . وطبيعى أن نقول أن الرجل الذى يتكلم بمثل هذه اللغة لا يمكن إلا أن يكون مسيحيا ، بالرغم من أنه عارض ذلك مئات المرات وقال : « إن الانخذال والتألم ليسا من طبيعته فى شئ » وقد أعلن بلهجة شديدة قاسية ذات يوم « أن الإنسان له حرية فى الحياة بأن يكون إما مطرقة أو سنداناً » .. وقوله « يظهر لى أنه من الخير أن يكون الإنسان مطرقة من أن يكون سنداناً » وهو أمر مألوف منه ، ولكن الذى يدعو إلى التهن لرضاه « تحمل الضربات المتوالية الأبدية » .

والآن ننتقل إلى شعاره الجديد والمعروف بـ « النفور » فقد ظل ملازماً لكتاباته كما كانت «الحرية» شعار (شلر) و«الفداء» شعار واكنر، وكل شئ يدعونا للتردد باعتبار هذا الشعار شعاراً وثنيا على الرغم من إيمانه بالقوة والنضال لأن قوله : « أن الحرب فى الحقيقة مرض عجز عن معالجته نطس الأطباء وهى مخالفة للسنن الطبيعية » رد بليغ على إيمانه بالقوة . أما مسيحيته كعامل ذى أهمية كبرى فى تكوين شخصيته فقد كانت تعود بالدرجة الأولى إلى تربيته البروتستانتية .. وقد استرعى انتباهه بصورة جدية ترجمة لوثر للكتاب المقدس فعلق على ذلك بقوله « إنى أتمكن أن أضيف على ترجمة لوثر ولكن بصورة أحسن » ولكن البروتستانتية لم تثبت أمام حدة نقده بل تراه ينبذ ذلك ويلتجئ مرة إلى مدح القوة البدنية أو يلتجئ إلى الكاثوليكية للوحدة الديمقراطية مرة أخرى فيقول « يجب أن يكون الإنسان كاثوليكيا كى يتمكن أن يشارك العامة فى عيشه وأن يختلط بهم ويتعرف على مشاكلهم وأن يكون واحداً منهم يشاركهم فى السراء والضراء »

سريان التناقض فى جميع أعماله ومؤلفاته :

ضعه أينما شئت من طبقات التفكير أو الوجود — استناداً على الشواهد التى لا تقبل الجدل — فستجده حتما فى الطبقة المناهضة المعارضة ، وهذا من مميزاته حتى فى مواقفه الخلقية مثلا ، وموقفه فيما يتعلق بالزمن نفسه لا يختلف من ذلك فى شئ .

فتراه متباطئاً متكاسلا حيناً وتراه مراعيا جوده الوقت حيناً آخر تحت شعاره المألوف « ما أغنى إرثى وما أروعه . إن الوقت هو ملكى وأرض حصادى » . أما من الناحية الفنية فقد كانت مؤلفاته تناقضاً غريباً بحدذاتهـــا ، فبينما نراه يمثل نفسه تمثيلا موضوعيا « أبوليا » فى سخريته ، نجده فى الوقت ذاته غنائيـا واعترافيا ، يرسم بأغانيه صورة نفسه ويعبر عنها أحسن التعبير .

ولعلنـا بوصفنا إياه كمعترف ومكفر عن ذنوبه نصيب كبد الحقيقة من أن نصفه بأية صفة أخرى ، ولنا الآن أن نتصرف على ذلك بصورة إجمالية، كيف كان يشرح حياته ويبين الأهواء التى كانت تتنازعه ؟ يمكننا الإجابة على هذا السؤال باطلاعنا على نقاط الضعف فى حياته وكتبه : — فانتحار (فرتر) وخيانة (كلافيكو) وهسترية (تاسو) ودعارة (إدوارد) وخبث (فرناندو) فى مؤلفه (استيلا) دلائل ناطقة على سلوكه

إن الإنسان ليعجب عند ما يلاحظ سهوره وسخريته من أدب (المستشفى) ورغبته فى تغيير ذلك بأدب روحى سام عوضاً عنه . ومع ذلك فقد كان له (مستشفاه) الخاص ، وفى (مستشفاه) هذا يجد اعترافه وضمنه الإنســانى باديين بكل جلاء . حتى أن مؤلفيه (مايستر) و (فاوست) يبدوان وكأن الوهن قد أصابهما فى جوهريهما وهما لا يعدان شيئاً بالقياس إلى الرجولة المثالية التى امتلكت على الشاعر مشاعره

وعلى الرغم من أن ميزة الرجـولة لا تظهر بوضوح فى كل هذا النتاج المتنوع كما هى الحال مع (شلر) إلا أن النزعة الروحية الإنسـانية بادية فى كل ما كتبه بصراحة تدعو إلى الإعجاب وبأمانة تفوق الوصف وبدقة لا متناهية ، وفى كل ما كتبه يظهر طابع سحر شخصيته بصورة بارزة ، بحيث يمكننا أن نقول وبحق أن الابداع الأدبى جميعاً قديمه وحديثه لا يوازيه بقوته وسحره . وكمثال على ذلك أحب أن استعرض تمثيليته (أكونت) . هذه التمثيلية التى كانت مثاراً للتقدم من الناحية الدراماتيكية وحتى الناحية الفنية المحضة . ومع خروج هذه التمثيلية على جميع نظم المسرح إلا أنها تتسم بجمال فتان ، بأخلاق بطلها ، ذلك البطل صاحب النزعة الأوستقراطية والشعبية معاً . وما من شك أن روح اللامبالاة الرقيقة التى تسرى فى مسارب هذه التمثيلية تظهر

فوته على حقيقته بجميع رغائبه وشخصيته ، والتى هى فى نظرى أوج الكمال التى ارتقى إليه سحر فوته — نجد ذلك فى أكثر مؤلفاته كما نجدها فى علاقته اللاعاطفية مع (كلارجن) ؛ تلك الفتاة الصغيرة التى كانت من عامة الشعب وأخت (كرجن) التى عرض لها نفسه بلباسه الملكى الاسبانى وهو يحمل الدالية الذهبية لمجرد غرامه بآهاتها وراهاتها .. وهنا نجد (ترجسيته)[1] التى تتمثل فى حبه للفتيات المدنج اللاتى كان يعتقد بأنهن يمثلن عالم الروح والحب ، ولم يربط نفسه بهن إلا برباط الغرام المؤقت ، هذا الرباط الذى لم يكن إلا طارئاً ينثره غبـار الزمن فيضمحل وكأنه لم يكن. أما فكرة الزواج فكانت هى نفسها فكرة خيالية عابرة كحبه

حياته الغرامية :

كانت حياة فوته فى الحب فصلا غريباً ، والتنوع للثقـافة العامة مجبر على التصرف بشؤونه الغرامية لكى يكون انطباعه عنها صحيحاً لا تشوبه شائبة ، فألمانيا فى الأيام — التى نحن بصددها — كانت مسـارحاً لهذه الحوادث ، وليس لدارسى غوته إلا تعداد هذه الحوادث كما كان يفعل (زيوس) . إن هذه الحوادث أضحت الآن تماثيل فى (كاتدرائية) الانسـانية ، وأما ركوعه وخضوعه أمام (فردريكا) و (مريانه) و (لوته) وتذلله أمام أقدامهن — وهن ما هن عليه من سيطرة ونفوذ — فلم يدم طويلا لأنه رأى فى كل ذلك إهانة لنفسهـا وحطا من قدرها ، فتمرد على هذه العواطف الموج وخرج مما تورطه به مفعماً شهامة وبأساً ، وربما كان فى هذه الحوادث مايعوض من تناقضه الذى كان ينتابه وولاؤه الذى كان أبداً مائلا إلى الانهيار . لأن حبه — فى الحقيقة — لم يكن إلا ضرورة ووسيلة لغاية ، تلك الغاية التى تتمثل فى عمله الأدبى

كتب مرة إلى (لوته) قائلا ... إنك لا تشعرين بفرتر كما يجب وإنما الذى تشعرين به هو أنا ونفسك . وإذا كان فى إمكانك أن تشعرى بواحد من ألف مما يعنيه فرتر إلى آلاف القلوب لقدرت المتاعب التى تحملتها فى سبيل التعبير عنه » .

---

(١) صحبة الفتيات الصغار وهو شذوذ جنسى

وطبيعي ألا تفهمه النساء ولكنهن تحملن عبثه اضطرارا

نظم غوته الشعر منذ البداية على الطريقة الفرنسية والإيقاع اليوناني القديم، وكان شعره موهوبا منسجماً مع روح العصر، فيه خفة ورقة وعذوبة. وقد أصبح بتطور الزمن شاعراً يشار إليه بالبنان في دسترا سبورغ، بتأثير هردر. وكان لاتصاله بهوميروس واسيان وشكسبير، وخصوصاً بالأخير الذي كان معجباً به أشد الإعجاب في جميع أدوار حياته، ولوامه بالكتاب المقدس وبالثناء الشعبي أثر هائل في توجيه حياته الأدبية وتنمية روح الطلاقة والانطلاق والصفاء فيه. أصبح هردر بفضل تعلمه وعمق إدراكه وغريزته النقدية القائد الأدبي للثورة التي طفت على ألمانيا سنة ١٧٧٠؛ ولكنه كان يعوزه سر العظمة الملهمة والسحر الأدبي واللطف الإنساني، التي كان تلميذه غوته يتمتع بها جميعا، وهذا هو الذي جعل الشاب اليافع يتجاوز أستاذه ويتفوق عليه. وإني أعتقد أن هردر شعر بذلك ولم يتمكن من مغالبته المرارة التي أحدثتها تصاريف الأيام في نفسه. ليس في إمكاننا الآن أن نشعر بمقدار الاستفزاز الذي حدث في ربيع المبقرية، والعاصفة التي أثارتها قصيدته (مرحباً وإلى اللقاء) وكيف أن سياق الفواني وتيارها الجارف بعثر ما تبقى من رماد زيف الشاعر الواقعي هردر، كما أن قصته (غوتس فون بيرلنجن) كان لها الوقع نفسه، تلك القصة التي هزت المسرح بأسلوبها الشكسبيري وبعرضها الألماني القديم، وقد وصفها فردريك الكبير بقوله «إنها جنون لا شكل له» ونبذها، ولكنها مع ذلك حازت سمعة هائلة باستفزازها وتحديها لجميع النظم الشعرية وسخريتها بما تواطأ عليه الشعراء، فوصفها غوته نفسه بأنها أحدثت رضا شعبيا شاملا وذلك في كتابه «الشعر والحقيقة». ثم نأتي بعد ذلك إلى بعض المشاهد الأولى من (فاوست) فنجد أصدقاءه يصفقون والمداد لم يكد يجف، ويتحدثون بفرح متزايد «عن الشخص الذي ينمو بصورة منظورة»

أما (آلام فرتر) تلك القصة التي انطبعت بطابع الرسائل فلم تقتصر على أصدقائه والمقربين إليه أو مدرسته الخاصة ولا حتى على بلاده ألمانيا، بل تعدتها إلى العالم فاحتضنها كما احتضنته هي. ولا ريب أن العاطفية الواهنة الخجلة التي أبدع في جلائها هذا الكتاب الصغير، هي التي جلبت إلى مؤلفه مقت الأخلاقيين بالرغم من إخلاصها الطبيعي، وأثارت في الوقت نفسه عاصفة من الاستحسان اللامحدود من قبل الشباب. إنها كانت كالشهاب الذي سقط في مستودع مفرقعات فأحدث انفجاراً للقوى الخطرة التي كانت متحفزة للانطلاق. ويبدو أن الرأي العام في جميع الأقطار كان ينتظر — وبصورة سرية — هذا الكتاب من شاب ألماني مغمور في المدينة الإمبراطورية .. ومن الغريب أن نابليون نفسه كان يحتفظ بالترجمة الفرنسية لهذا الكتاب في الحملة المصرية. لم يتمكن غوته أن يجرب نجاحاً عاصفاً كما جربه في هذا الكتاب، فإنتاجه الذي شغله طوال حياته لم يقابل بمثل الحماسة التي قوبل بها هذا الكتاب

أما كتابه (ولهلم ما يستر) فقد لاقى رواجا كبيرا وعد من وجهة النظر الفنية — أي من وجهة النظر الرومانسية — بحصاف الثورة الفرنسية ونظرية (نخته) في العلوم. وعلى أي حال فإن هذا التأثير يمتد إلى (سترفتر) و(كلر) و(الجبل السحري) ولكنه يعد الثاني بالنسبة إلى (فرتر) في مدى نجاحه، وهذا ينطبق بالفعل وبصورة أوسع على كتابه (القرابة المنتخبة) وأشخاص روايته هذه يمثلون رموزاً ويبادق في لعبة ثقافية تدعو إلى التفكير العميق ... أما كتابه (الديوان الشرقي المؤلف الغربي) والذي احتوى على مالا يثمن من جواهر غوته فقد ظلت طبعته الأولى في المكتبات مكدسة بدون أن تلاقي أي رواج يذكر

أنهى غوته القسم الثاني من فاوست بجهد جهيد وتعب شديد، لأن قوته البدنية كانت في تدهور مستمر؛ وقال بخصوص ذلك ما يلي: «إن هذه الأوقات سخيفة جدا لدرجة أنها أقنعتني بأن جميع مجهوداتي المضنية المخلصة سوف لا تجازى، بل سيرمى بها على ساحل البحر! وستحطم هناك إلى أن تغطى برمال الشرف» ..

تأثير فاوست العالمي

نشرت بعض القطع من القسم الثاني من فاوست في حياة

غوته وخصوصاً ملحمته (هيلين) التي نشرت في جميع المجلات الفرنسية والأسوجية والروسية» وقد علق على ذلك غوته بقوله: «إن الأدب الوطني لم يعد له مكان يذكر في عصر الأدب العالمي، وإن كل شخص يجب أن يبذل جهده الاسراع بإيصال هذا العصر إلى ذروة قوته»

كيف أدمج العالم بذاته؟ وكيف أثر فيه؟ ماذا أعطته كل من إنكلترا وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا والشرق الأقصى وأمريكا؟ وكيف أثر في الحياة الثقافية لهذه البلدان جميعا؟ كل ذلك وأكثر من ذلك يشرحه لنا المؤرخ الأدبي (فرتر سترخ) في كتابه (غوته والأدب العالمي) «والذي[1] لايزال أكبر مصدر في دراسة غوته.» وقد قال أمرسون بخصوص فاوست ما يلي: وإن الشيء البارز في هذا الكتاب هو الذكاء الهائل. إن ذكاء هذا الانسان محلل جبار للعصور القديمة والحاضرة على السواء، بما فيها من الأديان والسياسة وأساليب التفكير؛ محلل لها إلى عناصرها وأفكارها البسيطة». فهذا الذكاء الهائل وهذه الإحاطة الشاملة والتنظيم الدقيق والعقل الممتزج بالشاعرية، كانت تمثل فكره الجبار الذي كان ينبض بمشاعر المستقبل بشجاعة خارقة. ومن الغرابة أن نتصوره وقد تحدى الموت بادراكه للمستقبل وبتوقه له، وهو لا يزال في دور الصيرورة والتكوين، ليس في الناحية الاخلاقية والظاهرية وحسب، بل حتى في الناحية العملية، هذا التوقع الذي كان واجب كل شخص الإسراع بإعداده والتهيؤ لاستقباله والعمل على إبرازه إلى حيز الوجود. وفي الحقيقة فإن كتابه (رحلة ولهلم مايستر) الذي وضعه في أواخر أيامه - يتضمن فكرته الأساسية وهي (التطور). أما مثله الأعلى المتقمص في فكرة (الشخصية الكونية) فتراها تذبل تدريجاً حتى تسقط نهائيا من مؤلفاته الأخيرة فيحل محلها العصر الإجتماعي، وأما ما نجده في هذا الكتاب فهو عدم أهلية الفرد للقيام بما يتطلبه المجتمع منه كفرد، ولذا فاجتماع الناس هو الذي يكون مفهوم الانسانية، وعلى ذلك يصبح الانسان عثابة عمل وأهميته تبرز لكونه يقوم بدور فعال في سبيل الثقافة الاجتماعية.

وكذلك يظهر مفهوم الجماعة بوضوح وجلاء من طريق إحلال العلاقة الاجتماعية محل الفردية الضيقة

وليس من شك في أن عمره الطويل — على وقاره — لم يتطرق إليه الجفاف ولا التصلب، فقد كان مفعما بالحساسية والدهشة والاستمتاع بالحياة ورفع شأن الأفكار العصرية. وقد كان الحديث الدائر على مائدة سيد القرن الثامن عشر لا يتعدى نطاق الأفكار الطوبائية والمشاريع العمرانية، كحفر قنال لإيصال المحيط الهادي بخليج المكسيك وحفر قناة أخرى لإيصال البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر. وقد كان يؤكد دائماً ذلك بقوله: «وإن تحقيق هذه الأشياء يستحق مني العيش خمسين سنة أخرى». أما ثقته بالمستقبل فقد كانت تحتضن العالم كله، وأما حماسته فكانت نتيجة لشعوره بالقيمة العملية للحقائق العلمية وتأثيرها في نبذ الأفكار الغيبية التي كان العالم متأثراً بها ومريضا بسببها فسعى جهده لتخليصه منها. وقد نظم كل هذه المشاعر ببيته القائل «إي أمريكا! إن حياتك أحسن من حياتنا هنا في القارة، فأرضك لا تموقها الصخور ولا القباب القديمة الخربة» وجميع هذه القباب هي من آثار (السخافة القديمة[1]) التي يمقتها أشد المقت، وكان يصر على تهديمها كي يحب الانسان الحياة على اعتبار هذه الآثار من الناحية المعنوية — كانت تمثل في نظره الرجعة العاطفية (السخافة) التي كانت تقف حجر عثرة في سبيل التقدم البشري، وقد تأمل شاعرنا من فجر حياته لتحطيم أحزاب هذه السخافات لما لها من تأثير في العقول؛ يبدو ذلك من قوله في كتابه ولهلم مايستر (إنهم لا يخافون شيئا كخوفهم من الفطرة السليمة، ولكن عليهم أن يخشوا السخافة التي هي الهول بعينه: ولكن الفطرة السليمة تعرقل مساعي لتحقيق مآربهم فعليها السلام ولتترك جانبا، ولتقدم السخافة ما يحلو لها وما عليك إلا أن تجلس وتنتظر)

ومع ذلك فغوته لم يجلس ولم ينتظر بل صمد (وقف) بشجاعته وبأسه يجالد ويناضل في سبيل إبادة هذه السخافة، وفي سبيل تثبيت أركان الفطرة السليمة. أليس اتجاه السخافة هذه

(١) من كلام المترجم

(١) يقصد المؤلف أموراً ما وراء الطبيعة (المترجم)